

بوق جدعون

في بداية الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية قبض على رجل يدعى كلارنس جديون متهماً بسرقة لم يرتكبها ، وإذ قدم للمحاكمة أمام احدى محاكم ولاية فلوريدا ، طلب جديون من القاضى أن ينتدب له محامياً على نفقة الحكومة لأنه لا يملك مالاً كافياً لتوكيل محام . لكن القاضى رفض ذلك وأخبره أن القاعدة السائدة لا تلزم الحكومة بذلك إلا في الجرائم الكبرى التي تصل عقوبتها إلى الإعدام . وهكذا ترك جديون ليدافع عن نفسه دون محام ، ونظراً لأن له عدة سوابق ، فقد أدانته المحكمة وقضت بسجنه لمدة خمس سنوات .

ولكن جديون من سجنه أرسل التماساً إلى المحكمة العليا ، يطعن في دستورية محاكمته ، محتجاً بأن من حقوقه الدستورية أن يوكل له محام على نفقة الحكومة . وأثارت المسألة مناقشة قانونية واسعة : هل من العدل أن يكون ممثل الإدعاء (وكيل النيابة) محام دارس للقانون ، بينما لا يتمتع الطرف الآخر (المتهم) بنفس الميزة ؟ أين تكافؤ الفرص إذن الذي يكفله الدستور ؟! .. وهل من العدل أن يقصر هذا الحق على من هم ظروف خاصة كأن يكون المتهم أمياً أو غير متعلم أو منخفض الذكاء أو أن تكون وقائع الجريمة معقدة ؟

وأمام المحكمة العليا اعترضت ولاية فلوريدا بأن المتهم جديون قد سبق له أن حوكم أربعة مرات ، مما أعطاه خبرة بالإجراءات القضائية ، وأن المحكمة لم تكن متحيزة ضده .. ولكن أهم اعتراض أثير هو أنه يوجد عشرات الألوف ممن يقضون عقوبات مختلفة في سجون البلاد قد حوكموا وأدينوا وصدرت ضدهم أحكام دون أن يتوفر لهم محام للدفاع ، وأنه في حالة تقرير هذا الحق ، سيصبح من حق كل واحد من هذه الألوف المتراسة أن يطلب إعادة محاكمته ، وهو أمر سيسبب ارباكاً شديداً لحكومات الولايات فضلاً عن التكاليف الباهظة ، ولكن قضاة المحكمة العليا قرروا بالإجماع أنه مهما كانت النتائج مكلفة فهذا لا يبرر استمرار خطأ دستوري يمثّل انتهاكاً للحرية والعدالة . وهكذا تقرر الأمر ، وأصبح من حق كل من يمثّل أمام محكمة أن يتوفر له محام بدون مقابل ، ولو كانت القضية مجرد مخالفة لقوانين المرور . وأعيدت محاكمة جديون وفاز بالبراءة التي يستحقها عام ١٩٦٣ . وقد أثارت هذه القصة أوجاعاً في نفسي عن أمور كثيرة صارخة تحتاج إلى مراجعة ومقحيص في حياتنا ولكننا لا نقرب منها ، والحجة المشهورة هي : أننا متى بدأنا المناقشة ، سوف نفتح على أنفسنا باباً لا يخلق ، ونفسح مجالاً للتشكيك في كل شئ وأى شئ ، بل إننا سنقدم لمن يعادينا حججاً جاهزة لكي ينتقدنا ولسان حاله " لقد شهد شاهد من أهلها " . وأصبحت هذه الحجة مبرراً للتمسك بكل ما هو قديم ، حتى بعض الأمور غير السليمة والتي لا ندرى لها أصلاً .

لقد انتجت السينما الأمريكية فيلماً عن هذه القصة واختارت له عنوان "بوق جدعون" ولعل كاتب الفيلم أراد أن يستعيد صورة جدعون وهو في عدد قليل يهز بأبواقه الكثيرة القوية . لقد استطاع رجل وحيد أن ينتزع حقاً ضائعاً لعشرات الألوف من معاصريه ، وملايين أتوا بعده ، وأن يصحح خطأ سكت عنه من هم أكثر منه تعليماً وادراكاً ؟

ويبقى السؤال : أيهما أكثر خطورة ؟ أن نخض النظر عن علامات الاستفهام المتعلقة حتى بيأس كثيرون وينفضوا عنا ؟ أم نفتح الباب أمام الرياح القوية التي تزيح رمالاً تراكمت على صخور الحق ؟ وهل يمكن لمثل هذه الرياح أن تشكل تهديداً للكنيسة ، أم أننا - نحن الخدام - نخشى على أنفسنا ؟!